معالم تدبير الاختلاف مع المخالف الديني في القرآن والسنة

الأستاذ الدكتور محمد بن محمد رفيع
أستاذ أصول الفقه والجدل ومقاصد الشريعة
جامعة محمد بن عبد الله/ فاس/ المغرب

تقديم:

يروم هذا الموضوع رصد المعالم الكلية والتفصيلية لقضية تدبير العلاقة مع المخالفين الدينيين من خلال نصوص الكتاب والسنة وواقع السيرة النبوية، وذلك قصد بيان أصالة وعدالة ومتانة بناء العلاقة مع المخالف في المنهج الإسلامي العام، حيث تنتظم هذه العلاقة في سلك الرحمة العامة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي قررها الحق سبحانه في صيغة حصرية جازمة في كتابه، حين قال: **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾** (الأنبياء 107)، وأكدها المصطفى الكريم بذات الصيغة بقوله: **﴿ إنما أنا رحمة مهداة ﴾**[1].

وقد عالج القرآن الكريم قضية المخالف عامة والمخالف الديني خاصة في مواطن متعددة ومختلفة من نصوصه وآياته، مركزا على إبراز الجوامع قبل الفوارق مع المخالف، داعيا إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن منهجا أصيلا متبعا في تدبير العلاقة مع المخالف.

ومن الناحية العملية، ألفينا النبي الكريم في سيرته مع المخالفين يتصرف باطراد بمنتهى الرفق والرحمة، سواء تعلق الأمر بأشد أنواع المخالفين ككفار قريش الذين تعامل معهم النبي صلى الله عليه وسلم منذ اللحظة الأولى من بعثته عليه السلام، أو بالمخالفين الذميين من أهل الكتاب الذين ألف منهم عليه الصلاة

والسلام ومن المسلمين مجتمع المدينة، أو بالمخالفين من رؤساء الدول الذين حرص النبي عليه الصلاة والسلام على مكاتبتهم ومراسلتهم بمنتهى الرفق والرحمة يعرض عليهم رحمة إسلام العالمين.

ومن أجل تفصيل القول في هذا الموضوع ارتأيت أن أورد قضاياه التفصيلية منتظمة في الكليات التالية:

تقديم: أبرزت فيه القيمة العلمية للموضوع والقصد منه، وخطته التصميمية والمنهج المتبع في بنائه.

المبحث الأول: المعالم الكلية القرآنية في تدبير العلاقة مع المخالف.

المبحث الثاني: معالم السنة التفصيلية في تدبير العلاقة مع المخالف.

خاتمة: ضمنتها أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وقد اقتضت مني طبيعة الموضوع أن أتوسل إلى بناء هذا البحث بمنهج يجمع بين استقراء النصوص الشرعية المؤسسة لقضايا الموضوع من القرآن ومدونات السنة، وتحليل مضامينها وبيان معانيها ومقاصدها، وتركيب ذلك في سياق التصور العام للموضوع، معتمدا في ذلك على نظام التوثيق الأكاديمي بتخريج الشواهد القرآنية وعزو الحديثية إلى مظانها، والإحالة على مصادر المعلومات ومراجعها في الهوامش.

وتأسيسا على ما سبق حاولت بتوفيق الله تعالى مقاربة موضوع تدبير العلاقة مع المخالف منهجيا من مدخلين اثنين: **أولهما نظري:** توخيت من خلاله رصد وتحليل المعالم الكلية القرآنية التي تأسست عليها علاقة الرحمة مع المخالف.

ثانيهما عملي: يروم رصد وتحليل وتعليل المعالم التفصيلية لتدبير العلاقة مع المخالف من خلال السيرة النبوية والسنة المطهرة.

المبحث الأول: المعالم الكلية القرآنية في تدبير العلاقة مع المخالف:

لقد قدم لنا القرآن الكريم بناء نظريا متكاملا متينا للعلاقة مع المخالف، أقامه على ثنائية معلمية رصينة واضحة، تشكل في مجموعها السياج العام الضامن لعلاقة التراحم والتعاون مع المخالف، نقدمها وفق التصنيف الآتي:

أولا: المعالم التكوينية:

نقصد بالمعالم التكوينية الكليات التي يتأسس عليها الفعل التدبيري للحق سبحانه في آيات هذا الكون بمقتضى إرادته الكونية، ذلك أن الله عز وجل يتصرف بمقتضى إرادتين: إرادة تكوينية وأخرى تشريعية، فيكون موضوع الأولى الكون والثانية الشرع.

وقد اقتضت إرادة الله الكونية جعل آية الاختلاف والتعددية بين الناس سنة كونية مطردة، سواء في المجال اللغوي **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾** (الروم الآية 22)، أو في المجال الديني **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾** (هود 117- 118)، أو في المجال المذهبي والفكري، غير أن النظر إلى هذا الاختلاف على أنه آية ثراء وغنى وفق قصد الله الكوني إنما يتم من خلال ما يتأسس عليه من ائتلاف واشتراك بين أهل الاختلاف، كما توضحه المعالم التالية:

1) وحدة أصل الإنسانية:

إن قضية التعددية في المجتمعات الإنسانية بشتى مظاهرها الدينية والفكرية والثقافية واللغوية وغيرها مرجعها في النظر الشرعي إلى أصل موحد، كما أخبرنا بذلك الحق سبحانه في جملة من آيات كتابه، منها قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا**

رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء الآية 1).

فالإنسانية على امتداد الزمان والمكان واختلاف الألسن والأعراق والألوان تؤول بمقتضى الآية إلى أصل واحد وهي النفس التي منها تناسلت فروعها، ويجمع بين هذه الفروع الإنسانية علاقة أصيلة ثابتة اقتضاها الأصل الموحد، وهي علاقة الرحم الآدمية بغض النظر عن الدين والعرق واللون والحضارة، وينبغي النظر إلى هذه العلاقة بما تستوجبه من حقوق تتعين مراعاتها، تحت طائلة الحساب الأخروي، كما نفهم من قوله عز وجل: ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾، ومن قوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ (الحجرات من الآية 13).

ووحدة أصل النوع أمر مدرك بالضرورة، كما يقول الطاهر بن عاشور، " لأن كل إنسان إذ لفت ذهنه إلى وجوده علم أنه وجود مسبوق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء، فيوقن أن لهذا النوع أصلا أول ينتهي نشوءه "[2]

يتأكد هذا المبدأ القرآني في تقرير حقيقة وحدة الإنسانية في أصلها بالبيان النبوي، في قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى "[3]، وفي قوله عليه السلام: "كلكم لآدم و آدم من تراب "[4]، وفيما كان يردده في دعائه عليه الصلاة والسلام: " اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة "[5].

فانطلاقا من لبنات مفهوم الوحدة في النفس والأبوة والأخوة الجامعة للإنسانية أسس القرآن الكريم قواعد متينة للعلاقة مع المخالف من أجل التعارف والتعاون والتكامل بين خلق الله أجمعين، فألغى بذلك كل دواعي التقاتل والتباغض ....، وأقصى أطروحات الميز العنصري والتفوق العرقي، أو الاصطفاء الإلهي الطائفي كما يدعي اليهود أنهم شعب الله المختار وإن فعلوا ما فعلوا، من سعي في الأرض فسادا، وسفك دماء الأبرياء والأنبياء، ونقض العهود، وأثبت معيار التفاضل الذي يسع الجميع **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** (الحجرات من الآية 13).

2) وحدة العبودية التكوينية الاضطرارية:

إن وحدة الربوبية للخالق سبحانه، تستدعي وحدة المربوبية في حق الناس جميعا، فجميع الخلق متساوون في الخضوع التكويني الاضطراري لخالقهم سبحانه من خلال القوانين الثابتة المطردة التي تنتظم هذا الكون بأجمعه، ولا يسع أحدا من خلق الله أن يخرج عن هذا المبدأ الكوني الموحد لمخلوقات الله، كما قرر الحق سبحانه في قوله: **﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾** (آل عمران 83)، وفي قوله: **﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾** (الرعد الآية 15)، وقوله عز من قائل: **﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾** (الإسراء الآية 44).

فمبدأ العبودية الاضطرارية الذي ينتظم جميع المخلوقات، وعلى رأسها الإنسان أساس مهم في التقريب بين الناس، وفي التقليل من الخلاف بينهم، فظهور دواعي الائتلاف بين الناس أدعى للحد من عوامل الاختلاف بينهم.

3) وحدة الوظيفة الكونية :

إن وحدة العبودية الاضطرارية للناس بمقتضى الإرادة التكوينية لله تعالى، تستلزم للإنسان وحدة الوظيفة في هذا الكون، فقد أخبرنا سبحانه بذلك قائلا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة من الآية 30)، والمقصود بخلفية الإنسان هنا كما يقول الطاهر بن عاشور " قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض "[6]، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود من الآية 61).

وهذه الوظيفة التكوينية راجعة إلى ما يمتاز به الإنسان من كونه " الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان "[7]، إذ جاء هذا المخلوق في أحسن تقويم جسما وفكرا وإرادة ليقوى على العمارة وبناء الحضارة بما يخدم القصد الكلي الكوني في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات الآية 56).

ولعل انتظام سلوك الإنسان في تفاعله مع هذا الكون في سلك هذه الوظيفة التكوينية الكلية، دعامة أخرى تنضاف إلى غيرها من الدعامات في بناء حقيقة المشترك الإنساني بين المخالفين.

4) وحدة القدرة على الإدراك المعرفي :

لقد هيأ الله لكل إنسان بمقتضى إرادته التكوينية المؤهلات الأساسية في إدراك المعرفة من آيات كتابه المنظور، من الحواس وإرادة البحث والاستكشاف والعقل، وذلك على وجه المساواة بين الناس جميعا، فلا حق لأمة ولا جماعة أن تدعي احتكار العلم، أو التفرد بالقدرة على استنباط المعرفة، لأن الناس متساوون في

تلك المؤهلات لحظة ميلادهم، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل الآية 78)، وربط الحق سبحانه بين العلم ووسائل إدراكه، فقال: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء الآية 36)، وفي سياق امتنانه على بني الإنسان ذكر نعم مؤهلات الإدراك المعرفي، بعد نعمة التسوية الجسدية والروحية، فقال:﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة الآية 9).

وإنما يتفاوت الناس في المؤهلات الفطرية الشخصية التي لا تلغي المشترك بينهم في الكفاءات العامة، والخطاب القرآني للإنسان إنما يحرضه على التوظيف الأمثل للمشترك من الكفاءات بين كل الناس في اقتناص المعرفة من خلال الآيات المبثوثة في صفحات كتاب الكون، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران الآية 190)، وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة الآية 164).

وضمن الخطاب القرآني استمرار تجدد المعرفة في الزمان كلما أحسن الإنسان توظيف قدراته المعرفية، فقال عز وجل : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت من الآية 53)، كما لفت الخطاب القرآني انتباه الإنسان إلى مجال حيوي آخر أقرب من الإنسان نفسه لتوظيف مشترك الكفاية (compétence commune)، فقال سبحانه: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات الآية 21).

فانتقال المشترك الإنساني هنا إلى أعماق الإنسان، وفي أشرف ما يملكه هذا الإنسان، وهو القدرة على المعرفة، إنما هو بناء متين عميق للعلاقة الإيجابية مع المخالف.

5) وحدة الطهارة الفطرية :

خاطب القرآن الإنسان على أنه مخلوق مكرم طاهر، يمتلك القدرة والاستعداد لبلوغ أقصى درجات الكمال البشري، وهو المعرفة بالله وبخلقه وبشرعه، بحيث لا يوجد لدى أي إنسان أو طائفة ما يعوق إمكانية الارتقاء الكمالي، ويستوي في ذلك الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم، يقول الطاهر بن عاشور: "لو ترك الإنسان وتفكيره، ولم يلقن اعتقادا ضالا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته"[8]، وفطرة الإنسان حسب ابن عاشور "ما خلقه الله عليه جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية... واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية"[9]، وهذا الذي سماه القرآن "**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**" (الروم من الآية 30).

فالإنسان بهذا المقتضى يولد نقيا طاهرا على الفطرة، لا يحمل وزر غيره أوخطيئة أجداده إرثا موروثا، أو ما يعرف في المسيحية "بالخطيئة البشرية"، وإنما تتعرض فطرة الإنسان لما يشوهها ويغيرها بعوامل التنشئة الاجتماعية، وغياب الحصانة التربوية، كما أخبرنا الحق سبحانه على لسان نبيه عليه السلام حين قال: **﴿إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا﴾**[10]، وأكده نص البيان النبوي: "**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**"[11].

فهذه حقيقة أخرى كونية مشتركة بين بني الإنسان جميعا، تؤكد مدى امتداد عمق المشترك بين الناس في كيانهم البشري مهما اختلفوا.

6) وحدة الكرامة الإنسانية :

قرر الحق سبحانه بإرادته التكوينية أن يصطفي بني آدم من بين كثير من خلقه ليرفعهم إلى مقام التكريم، فقال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء الآية 70)، وذلك قبل اختلاف الناس بألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم الدينية والفكرية والعلمية.

وصور التكريم للإنسان ومظاهره عديدة، منها ما ينتظمه التكريم الجسدي ممثلا في الهيأة البشرية القويمة، وما يتبع ذلك من التناسق في حركاته وسلوكه خلافا لغيره من المخلوقات [12]، مصداقا لقول الله تعالى﴿ **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ (التغابن من الآية 3)، وقوله سبحانه : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين 4).

ومنها ما ينتظمه التكريم المعنوي ممثلا فيما يتميز به الإنسان من قوة العقل والقدرة على التواصل بقوة البيان الذي علمه الله إياه، كما أخبرنا في قوله: ﴿**خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ**﴾ (الرحمن الآيتان3-4)، ينضاف إلى ذلك ما ذكرناه آنفا من نقاء الفطرة وامتلاك وسائل إدراك المعرفة، وكل ذلك إنما هي أوصاف وأحكام تكوينية للنوع الإنساني، لا يستقل بها إنسان دون آخر لأي سبب من الأسباب، لأن الناس كرموا لآدميتهم قبل أن يتوزعوا أديانا ومذاهب ومللا ونحلا، لذلك وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يضرب أروع مثال في تكريم الإنسان مهما كان معتقده ومذهبه، وذلك حين وقف وقفة إجلال وتكريم لجنازة يهودي، فلما قيل له في ذلك، قال: " أليست نفسا ؟ " [13].

غير أن منبع كرامة الإنسان إنما تكمن في تحرره من عبودية غير الله تعالى، حتى لا يبتعد عن أصل تكريمه وتشريفه، فعبودية غير من كرم سقوط فيما يناقض التكريم وينافي التشريف، كما أن الدخول في سلك العبودية لله تعالى صعود في مدارج التكريم، مصداقا لقول ربنا سبحانه: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (الحجرات من الآية 13).

ثانيا: المعالم التشريعية:

إذا كان مقتضى قصد الله الكوني الاختلاف بين الناس الذي لا يلغي قدر الائتلاف بينهم كما تتبعنا من خلال المعالم التكوينية السابقة، فإن مقتضى قصده الشرعي -كما تشهد لذلك الشريعة في مختلف أبوابها أصولا وفروعا - حسن تدبير هذا الاختلاف انطلاقا من قواعد بناء الائتلاف.

المعلم الأول : البناء العقدي لعلاقة الائتلاف مع المخالف :

يتمثل الأصل العقدي في بناء المشترك مع المخالف في حقيقة التوحيد القائمة على ركيزتين: وحدة الألوهية التي ينفرد بها الخالق سبحانه، ووحدة العبودية التي يشترك فيها الناس أجمعون .

والتوحيد هو المضمون العقدي المركزي الثابت الجامع بين جميع الشرائع والديانات التي جاء ت بها الأنبياء والرسل عليهم السلام تترى، منذ آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾(الشورى من الآية 13).

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المشترك التوحيدي بقوله: "إنا معشر الأنبياء ديننا واحد، وأنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه

نبي "[14]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى "[15].

فإذا اختلفت الشرائع باختلاف الأمم والحقب، بمقتضى قوله تعالى: **﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾** (المائدة من الآية 48)، فالمشترك التوحيدي يجمعها وينتظمها في سلك الدين الواحد الجامع، وهو الذي سماه ابن تيمية الإسلام العام[16]، وهذا واضح ومطرد في دعوات الأنبياء والرسل التي توالت على الإنسانية، فقد كان شعارها الإسلام وقضيتها الأولى التوحيد.

فنبي الله نوح عليه السلام، ظل يدعو صامدا وصابرا قومه طوال ألف سنة إلا خمسين عاما إلى قضية التوحيد، قال الله تعالى في حقه : **﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾**(نوح الآيتان 2-3)، وهي دعوة لا تخرج عن مقتضى الإسلام ومعناه، لذلك اعتبر نوح عليه السلام نفسه من المسلمين بهذه الدعوة، فقال تعالى على لسان نبي الله نوح: **﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾** (يونس الآية 72).

ونظر القرآن لدعوة نبي الله إبراهيم على أنها دعوة توحيدية إسلامية، أوصى إبراهيم بنيه أن يحافظوا عليها في الأجيال اللاحقة، قال تعالى:**﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾** (البقرة الآية 132).

وحافظ نبي الله يعقوب على وصية جده إبراهيم أن تستمر في الذرية، قال تعالى: **﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾** (البقرة الآية 133).

واستمر المشترك التوحيدي الإسلامي في دين يوسف عليه السلام، حفاظا على الوصية الإبراهيمية، وذلك قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف الآية 101)، وحافظ سيدنا موسى عليه السلام على الوصية في دعوته لبني إسرائيل، كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (البقرة الآية 84).

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن جميع أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام كانوا محافظين في دعواتهم على المشترك التوحيدي الإسلامي، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾ (المائدة الآية 44).

ولم يخرج نبي الله عيسى عليه السلام في دعوته ورسالته، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل عن المحافظة على المشترك التوحيدي، كما اخبرنا الحق سبحانه في قوله: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران الآية 52).

فلما ختم الله رسالاته برسالة الإسلام، ورسله وأنبياءه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حكم الحق سبحانه أن تكون رسالة الإسلام رسالة البشرية جمعاء، فجاءت في صورة الخلاصة التصحيحية النهائية لجميع الشرائع السابقة، لذلك قرر أحكام الحاكمين حاسما: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (آل عمران من الآية 19).

وبناء على هذا التكامل بين شرائع الله تعالى، كان الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله ركنا ركينا في العقيدة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة الآية 136)، كما أن تكذيب رسول من الرسل تكذيب للرسل جميعا، وكفر بهم، لأن الرسل بعثوا من عند الله جميعا برسالة المشترك التوحيدي، فالتفريق بينهم لا مسوغ له، قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة الآية 285).

وقد حكى لنا القرآن الكريم مصير الخزي والعار في الدنيا والآخرة لمن كذبوا الرسل من المجتمعات والأمم السابقة، فقال تعالى عن مكذبي نوح عليه السلام: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفرقان الآية37)، وقال عنهم أيضا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (الشعراء الآيات 117- 120).

وعن هلاك قوم عاد بسبب تكذيب سيدنا هود عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء الآية 139)، ويقول عن تكذيب قوم لوط: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (الشعراء الآيات 160- 162)، فكانت النتيجة قول الله تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (الشعراء الآيات 170-172)، وهكذا كان مصير سائر الأمم والأقوام الذين كذبوا بأنبياء الله ورسله.

نخلص إلى أن هذا التأسيس العقدي للعلاقة مع المخالف، كما تتبعنا تفاصيله فيما سبق، يضعنا أمام المكانة العليا لهذه القضية في المنهج القرآني.

المعلم الثاني: اعتماد الحوار في تدبير الاختلاف مع المخالف :

تستمد قضية تدبير الاختلاف مع الآخر المخالف أصالتها ومشروعيتها من المرجعية العليا للفكر الإسلامي: الكتاب والسنة، ذلك أننا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم نظرا كليا ألفيناه خطابا ربانيا موجها إلى الإنسان ذي خصوصية فكرية وطبيعة جدلية، كما وصفه الحق سبحانه: ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾ (الكهف من الآية 54) ، لذلك سيقت رسالة هذا الخطاب مساق جدل وحجاج، ولم تقدم عارية عن البراهين والحجج مراعاة وتقديرا للمخاطب المخالف.

ونظرا لأهمية وحيوية تدبير الخلاف، تولى الحق سبحانه بنفسه وضع منهجية عملية في التعامل مع المخالف، فقال سبحانه: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (النحل من الآية 125).

لم يكتف القرآن الكريم المصدر الأعلى للفكر الإسلامي بإقرار مبدأ الاختلاف، وإنما قدم نماذج تطبيقية لإدارة هذا الاختلاف، وأثبت أن المنهج الأمثل في حل الأزمات هو الحوار، لذلك نقرأ في القرآن الكريم مستويات متنوعة من الاختلاف المدار وفق قواعد حوارية رائعة.

فقد تحدث القرآن الكريم عن الخلاف حتى في أبشع صوره في مواطن عدة، كما في خلاف إبليس اللعين مع الحق سبحانه، فرغم أن الخلاف خلاف معاندة، غير مبني على أساس، ضمن الله عز وجل للمخالف الوجود، ومنح له حق التحاور، وعرض الحجج، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، كما قدم القرآن صفحات رائعة من حسن تدبير الخلاف بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم في بيئات مختلفة وأزمان متفاوتة وأساليب متنوعة، الأمر الذي يشكل لأصحاب الرسالة الخاتمة مشهداً متكاملاً لأساليب إدارة الخلاف.

فنبي الله نوح عليه السلام وظف كل أساليب الجدال والحجاج لإقناع قومه بدعوته حتى سئموا، وبلغ بهم الأمر أن ﴿ **جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾ (نوح من الآية 7)، وذلك بعد أن أقروا بكثرة مجادلة نوح عليه السلام: ﴿ **قد جادلتنا فأكثرت جدالنا**﴾(هود من الآية 32)، قال ابن عطية: " **معناه قد طال منك هذا الجدال وهو المراجعة في الحجة والمخاصمة والمقابلة بالأقوال حتى تقع الغلبة** "[17].

وإبراهيم عليه السلام الذي ناظر مخالفه النمرود في قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا احيي وأميت قال إبراهيم فإن الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر**﴾ (البقرة من الآية 258)، قال ابن حزم: "**وقد أمرنا تعالى في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وخبرنا تعالى أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة**"[18].

كما ناظر عليه السلام الصابئة في قوله تعالى: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين....الآيات**﴾ (الأنعام الآية 75 وما بعدها)، قال ابن كثير: " **والحق أن إبراهيم عيه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام** "[19].

وحاور عليه السلام الملائكة في موضوع إهلاك قوم لوط، كما في قوله تعالى: " **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط** "(هود الآية 74)، وقوله سبحانه: " **قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** " (العنكبوت الآيتان31-32).

ومن جملة المناظرات التي احتفى القرآن بذكرها في أكثر من موطن، مناظرة موسى عليه السلام لفرعون كما في قوله تعالى: " **قال فرعون وما رب العالمين قال**

رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون..."(الشعراء الآيات 23- 28).

المعلم الثالث: وضع ضوابط لتدبير الاختلاف [20]:

وإذا عدنا في هذا الموضوع إلى المرجعية الإسلامية ألفينا القرآن الكريم يقدم لنا منهجا متكاملا في تدبير الاختلاف، من خلال تأسيس الموضوع على جملة من الضوابط:

الضابط الأول: الاعتراف بالمخالف :

الإقرار بالمخالف واحترامه وتقديره، بناء على التسليم بأن الاختلاف بين الناس حقيقة وجودية كونية، وآية من آيات الله في خلقه بمقتضى إرادته الكونية والشرعية معا، أما حين لا يعترف الإنسان بهذه الحقيقة، فإن المآل يكون هو الصراع المؤذن بالخراب.

الضابط الثاني: العدل والإنصاف :

أسس القرآن الكريم العلاقة بين المختلفين على قاعدة العدل مهما كان الاختلاف، قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾** (المائدة من الآية8)، ورغب سبحانه بالبرور والإقساط للمخالف، فقال: **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾** (الممتحنة الآية 8)، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من خطورة ظلم المخالف، فقال: " دعوة المظلوم –وإن كان كافرًا– ليس دونها حجاب"

فالعلاقة بين المتخالفين – في بعدها الإجمالي – تتمثل في التعاون من أجل الوصول إلى المشترك الجامع في جو من العدالة والإنصاف، وإن كان ذلك على طريقة التدافع والتنافي بينهما، وعلاقة الإنصاف والاحترام علاقة متبادلة بين الطرفين المختلفين، يحرص عليها كل واحد منهما، لأنها تقود إلى قبول الحق، والبعد عن الهوى، والانتصار للنفس، أما انتقاص الرجال واحتقار اللغات وتهميش الثقافات فأمر مَعيب، وغير مقبول في مختلف الثقافات.

ورحم الله ابن البناء المراكشي الذي أكد مبدأ الإنصاف بقوله : "وكما تنظر بينك وبين نفسك، تنظر بينك وبين خصمك بشرط الموافقة على الأصول التي تنظر بها وإلا لم ينضبط الكلام والنظر، وانفتح باب الشغب والعناد"[21].

الضابط الثالث: وحدة المرجعية :

إن حسن إدارة الخلاف يتطلب ضرورة وجود قانون كلي مرجعي ممثلا في قواعد وأصول الاستدلال، يتحاكم إليه المتحاوران المختلفان، ويتفقان عليه أثناء عملية التدافع والتنافي بينهما ؛ لأنه لا نستطيع أن نتصور نقاشا جدليا جادا في غياب مرجعية مشتركة يتحاكم إليها أثناء الاستدلال نفيا أو إثباتا، ويتعلق الأمر بميثاق مشترك يضعه الطرفان ويتفقان عليه.

ولقد ألفينا القرآن يؤسس لوحدة المرجعية في الاختلاف في قوله سبحانه: **﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** (النساء الآية 59)، حين يتعلق الأمر بالاختلاف الداخلي بين المسلمين، أما حين يكون الاختلاف بين ديانات ومذاهب فالحسم فيه لله وحده، كما في قوله سبحانه: **﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾** (الشورى من الآية 10)، وقد يكون ذلك من خلال التحاكم إلى المشترك بين الديانات المختلفة مصداقا لقول الله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة**

سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ (آل عمران من الآية 64).

وفي فائدة التحاكم إلى مرجعية معيارية مشتركة، يقول الشاطبي: "إن الخصمين إما أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أم لا، فإن لم يتفقا على شيء لم يقع بمناظرتهما فائدة بحال"[22].

المبحث الثاني: معالم السنة التفصيلية في تدبير العلاقة مع المخالف الديني:

مرحلة النبوة المباركة مرحلة بيان تفصيلي لكليات الوحي القرآني وتنزيل تطبيقي لمنهجه، اكتملت به أصول الثقافة الإسلامية، فلا غرو أن نجد في هذه المرحلة منهجا نبويا أصيلا واضحا في تدبير الخلاف مع الآخر في أعلى مستوياته وأشد لحظاته تشريعا لنا وتعليما.

فقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إعلانا عن ظهور دعوة جديدة مخالفة إجمالا لأنظمة الحياة السائدة في الجزيرة العربية وغيرها، سواء على مستوى الاعتقاد أو الاجتماع أو الأخلاق أو غيرها، "فكان طبيعيا أن تحدث دعوته هذه حركة فكرية جدلية واسعة النطاق، وأن تكون شاغلا للذهن العربي حقبة طويلة من الزمن"[23] والجدال منشؤه الاختلاف، إذ : " لا جدال إلا حيث الاختلاف في إدراك حقيقة من الحقائق"[24].

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم في تدبير الخلاف مع الآخر- محل الدعوة- مسلك الحوار منهجا لطيفا رحيما مطردا لتبليغ دعوة الله عز وجل، فخاطب أصنافا من المخالفين، وكاتب بعضهم، وراسل آخرين، وطلب من الأصحاب تعلم لغة المخالف، فاستطاع صلى الله عليه وسلم أن يتوصل بمنهجه اللطيف في التفاوض والحوار إلى معاهدات ووثائق وبناء مشترك جامع.

أولا: مراتب المخالفين للنبي صلى الله عليه وسلم :

إن عموم رسالة الإسلام التي كلف النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغها للعالمين اقتضى منه عليه الصلاة والسلام أن يحاور ويعامل جميع خلق الله مهما كان دينهم ومذهبهم وعقيدتهم، فكان من أصناف المخالفين الذين حاورهم بكل معاني الرحمة من يلي:

1) أهل الشرك :

فقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم أهل قومه بعد بعثته في موضوع الإقلاع عن الشرك الذي لا يليق بكرامة الإنسان باعتباره كائنا عاقلا، ودعاهم إلى الدخول في دين الله تعالى في مناسبات عديدة، منها تلك التي جاءوه عليه السلام بوفد رسمي ليجادلوه في أهداف دعوته وإمكان التخلي عنها[25]، فما عنفهم ولا أنكر عليهم وهو رسول الله وهم كفار ينطق بالحق وهم يجادلون بالباطل، وإنما استمع إليهم حتى فهم مقاصدهم وفحوى عرضهم، فأجابهم إجابة هادئة واضحة أخرست ألسنتهم وأفحمت أحلمهم وهم القوم الخصمون، لذلك قرروا مقاطعة الحوار والإعراض عن الاستماع، بحجج واهية، كما حكى عنهم القرآن في قوله تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾**(فصلت الآية 26)، وقوله: **﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾** (الفرقان من الآية 4).

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعرض على القوم مشروعا واضحا مدعما بأدلة وحجج، وهو يقابلونه بكيل الاتهامات العارية عن أي دليل ولا يصرفه ذلك عن منهج الرحمة واللطف، وفي القرآن ردود كثيرة على اعتراضات هؤلاء المشركين ومطالبهم التي لا حدود لها بقيت خير شاهد على تلك المناظرات التي حرص من خلالها النبي صلى الله عليه وسلم على روح التواصل مع المخالف في أدب جام ولطف تام رغم شدة الخلاف وعناد المخالف.

2) أهل الكتاب :

حاور النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى بمقتضى عموم رسالته ووجوب تبليغ دعوته محاورة واسعة باعتبارهم أقواما يقرون بكتاب ويؤمنون برسول، فالخلاف معهم أقل عمقا من الصنف الأول، فهم أهل دين سماوي وبينهم وبين المسلمين رحم وقربى.

أولا: اليهود :

لقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالطائفة اليهودية منذ قدومه للمدينة يتلطفهم ويحاورهم بمنتهى الرفق والرحمة ويجيب عن أسئلتهم، ومن ذلك أن نفرا من أحبار يهود جاءوه صلى الله عليه وسلم ليحاوره في قضايا معينة اختبارا لصدق نبوته عليه السلام، فرحب بالحوار وقال: **﴿فاسألوا عما بدا لكم﴾**، فاستمع لأسئلتهم الدقيقة وأجاب عنها صلى الله عليه وسلم إجابة شافية سلموا جميعا بصحتها، وكان من تمام لطفه عليه السلام أنه يفتتح جوابه بقوله: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل"[26].

ومن شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على تقدير المخالف اليهودي والتلطف به أن كتب كتابا إلى يهود خيبر بلغة حوارية غاية في اللطف والرحمة، يفتتحه بالمشترك الديني بين الإسلام واليهودية، فيقول بعد البسملة: " من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى وأخيه، والمصدق لما جاء به موسى..."[27].

ثانيا: النصارى:

لقد وضع القرآن المخالف النصراني موضعا خاصا قريبا من قلوب المسلمين، وذلك حين قدم لهذا المخالف صورة إيجابية رائعة كما في قوله تعالى: **﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا**

وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (المائدة الآية82)، فكان ذلك تأسيسا لحوار إيجابي متواصل مع هذه الطائفة المخالفة بالمدينة قاده النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة، حيث ناقش عليه السلام رؤساء القوم وأحبارهم في قضايا عقدية خلافية كوفد نصارى نجران في تمام اللين والرفق، حتى إذا ما اقتنعوا أمام سلطان البرهان وقوة الحجة أعلنوا إيمانهم كالنجاشي وبعض رؤساء نجران [28]، أو يكتموه إلى حين كأبي حارثة النجراني [29].

فمنهج الحوار الذي أدار به النبي صلى الله عليه وسلم الاختلاف تبليغا للدعوة، وظفه مع صحابته تعليما وبيانا، كما نجد في قضايا عدة منها قصة خولة بنت ثعلبة مع زوجها أوس بن الصامت التي نزل في حقها القرآن : **﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾** (المجادلة الآية 1) [30] وقصة عمر رضي الله عنه في مجادلته للرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية [31]، ومحاورة سعد بن معاد وسعد بن عبادة في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ [32]، وغيرها من القضايا التي يدير فيها النبي عليه السلام الاختلافات بالحوار الهادئ حتى يفهم الجميع ويقتنع ويطمئن، فحسن إدارة الخلاف مع المؤلف مقدمة شرطية لحسن إدارته مع المخالف، وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه .

3) المجوس :

على الرغم من أن طائفة المجوس على دين غير سماوي، وألزموا أنفسهم بتشريعات مناقضة لجميع الديانات السماوية كزواجهم بالمحارم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم احتفظ لهم بحقهم في الوجود والاستمرار، واعتبرهم مكونا من مكونات المجتمع مثلهم مثل الطوائف الدينية الأخرى من أهل الكتاب، لذلك سن بهم النبي صلى الله عليه وسلم سنة أهل الكتاب في الجزية، حيث أخذها من

مجوس البحرين، وأخذها الخليفة عمر رضي الله عنه من مجوس فارس[33]، فاستحقوا بمقتضى ذلك حماية المجتمع لمصالحهم وأعراضهم، وحريتهم الدينية.

والأصل في هذه المعاملة النبوية لطائفة المجوس وغيرها من الطوائف المخالفة، الحرية الدينية المكفولة شرعا بقول الله تعالى: **﴿ لا إكراه في الدين ﴾** (البقرة الآية 256).

ثانيا: معالم الرحمة النبوية في معاملة المخالف الديني

إذا كان القرآن الكريم أسس لرؤية منهاجية كلية في حسن تدبير الاختلاف، فالنبي صلى الله عليه وسلم تولى في سيرته البيان التنزيلي والتفصيل العملي لمقتضيات الرؤية القرآنية، فقدم صلى الله عليه وسلم منهجا عمليا فريدا في تاريخ البشرية في حسن معاملة المخالف واستيعابه حضاريا، نبرزه من خلال المعالم التالية:

أ- معلم حماية المخالف الديني :

انطلاقا من مقتضى قصد الله الكوني في التعددية والاختلاف الذي يقضي بالنظر إلى المخالف معينا على الحقيقة، ومنافسا على الإبداع والإنتاج، كانت قضية حماية المخالف وصيانة مختلف حقوقه مضمونة في ذمة الله ورسوله، وهي أعلى مراتب الضمان على الإطلاق في الشريعة الإسلامية، وقد شملت هذه الحماية ما يلي:

1- **تأمين حياة المخالف الديني**: اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم حماية حياة المخالف في المجتمع الإسلامي من مسؤولية المسلمين تحت طائلة الوعيد الشديد في قوله صلى الله عليه وسلم: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما "[34]، ويبالغ النبي عليه الصلاة والسلام في تأمين حياة

المخالف مهما كان دينه ومذهبه، فيقول: " أيما رجل آمن رجلا على ذمته ثم قتله، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافرا "[35].

ومن تمام رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالف أن أمنه بأقوى صيغ الإيجاب والإلزام الصريحة، كما في قوله عليه السلام: " من آذى ذِميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"[36].

ومن فقه هذه النصوص وسواها ما ذهب إليه ابن حزم من أن من كان في الذمة وقصده العدو في بلادنا، وجب الخروج لقتالهم، حتى نموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن تسليمه إهمال لعقد تلك الذمة"[37].

وقرر الشهاب القرافي عموم التأمين لمختلف جوانب حياة المخالف بما ينافي مختلف صور الاعتداء، فيقول : " فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الإذاية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة الإسلام "[38]

2- الحماية الدستورية لحقوق المخالف الديني:

من هديه صلى الله عليه وسلم أن ساوى المسلم مع مخالفه الديني والثقافي أمام القانون المدني والجنائي وأمام القضاء، إلا ما له خصوصية دينية، وهي حقوق ثابتة مقدسة غير قابلة لإلغاء إلا في حالة نقض العهد من قبل المخالف، وهذا الذي تؤكده الصحيفة الدستورية النبوية الناظمة لمجتمع المدينة التعددي: " ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهيته على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش من سأل

منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبدا حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئا بظلم"[39].

قال محمد عمارة معلقا على الصحيفة النبوية: " فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول عقد اجتماعي وسياسي وديني - حقيقي وليس مفترضا ومتوهما - لا يكتفي بالاعتراف بالآخر وإنما يجعل الآخر جزءا من الرعية والأمة والدولة... له كل الحقوق وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق"[40]

وتزداد حماية حقوق المخالف قداسة حين ينصب الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه محاميا أمينا للدفاع عنها في محكمة الآخرة بين يدي الله، حيث قال: " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"[41].

3- حماية الحرية الدينية:

بنى الإسلام مجتمعه ونظامه السياسي على أساس الحرية الدينية، فهو يعرض مبادئه، ويبين أحكامه، والناس بعد ذلك أحرار في قبوله أو رفضه **﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** (الكهف الآية 22)، ففي ظل الإسلام لا تلغى الديانات الأخرى، ولا يحظر وجود سائر المبادئ والملل، بل يخاطبهم القرآن الحكيم معترفا بوجودهم، تاركاً لهم حرية اختيارهم بناء على مبادئه المؤسسة لحرية التدين والاعتقاد، النافية لأجواء الإكراه والإجبار، كقوله تعالى: **﴿ لا إِكْرَاهَ في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾** (البقرة من الآية 256)، وقوله: **﴿ لكم دينكم ولي دين﴾** (الكافرون الآية 6)، وقوله: **﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا**

مؤمنين﴾ (يونس الآية 99)، وقوله: ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـاغُ الْمُبِينُ** ﴾ (النحل من الآية 82)، وسواها من الآيات المقررة للحرية الدينية.

فكان طبيعيا أن تتولى الوثيقة النبوية الدستورية حماية الحقوق الدينية للمخالفين، وأن تنص بشكل صريح على حق المخالف في التعبير عن ذاتيته الدينية، بممارسة طقوسه، والعمل بمقتضى شريعته، والاحتفال بأعيادهم الدينية، (لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته)، كما احتفظت لهم الوثيقة النبوية بحقهم في الاستقلال بالنظام القضائي في أمورهم الخاصة بهم.

وقد شملت رحمته صلى الله عليه وسلم المشركين أنفسهم حين وقعوا بين يديه في غزوة بدر، فلم يكرهم على الإسلام، وإنما قبل منهم الفداء وتركهم على شركهم[42]، كما حرر أهل مكة عام الفتح دون إجبارهم على الإسلام، وقد مكنه الله منهم بقوله لهم: **﴿ اذهبوا فأنتم الطلقاء﴾**[43].

ويرى القرضاوي من المعاصرين أن من مقتضيات حرية المخالف الدينية كفالة حقه في بناء وإنشاء معابدهم، بل ومساعدة الدولة لهم في ذلك[44].

وإجمالا فإن إقرار هذه الوضعية المتميزة للمخالف في زمن يلغى فيه الآخر ويباد، هو ما جعل العالم الإنجليزي " سير توماس أرنولد " يقول عن الحرية الدينية التي أقرها الإسلام: " إن بقاء النصرانية الشرقية هو هبة الإسلام "[45].

ب- معلم التواصل الاجتماعي مع المخالف الديني:

لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم في مجتمع المدينة منذ حلوله بها على تحقيق وحدة النسيج الاجتماعي على أساس التنوع الديني، وذلك تطبيقا لمبدأ التواصل الاجتماعي مع المخالف الذي قرره القرآن الكريم، وذلك من خلال القضايا التالية:

1) مؤاكلة المخالف الديني:

من القواعد الاجتماعية المحققة للتواصل الاجتماعي والتلاحم بين أفراد المجتمع التعددي تبادل الزيارات وحضور المناسبات الاجتماعية مع المخالف، وتبادل الهدايا والاجتماع على الطعام، لذلك قرر القرآن الكريم مبدأ التواصل الاجتماعي مع المخالف الديني في قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ** ﴾ (المائدة من الآية 5).

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع المخالفين في الحياة اليومية كما يتعامل مع المؤالفين من المسلمين، فكان يأكل طعامهم ويجالسهم ويقبل هديتهم، كما في قبوله عليه السلام هدية المقوقس عظيم مصر[46].

ولا شك أن زيارة المخالف في داره ومواصلته ومؤاكلته ومشاربته وقبول هديته، مما يزيل الكثير من الحواجز النفسية بين المخالفين، ويؤسس لتعاون اجتماعي راق مع المخالف الديني.

2) مناكحة المخالف الديني:

لقد جعل القرآن الكريم الآخر الديني من أولي الأرحام حين أقام الأسرة على التنوع الديني، من منطلق قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ﴾ (المائدة من الآية5).

فأصبحت الزوجة الكتابية بمقتضى قوله تعالى: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ (البقرة من الآية 187) سكنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم زواج ماريا أم المؤمنين رضي الله عنها من الأقباط، كما تزوج من المخالفين اليهود صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله

عنها، فقدم بذلك عليه الصلاة والسلام دليلا عمليا على استيعابه للمخالف والمؤالف رفقا ورحمة، في الزمن الذي يتقاتل فيها المتخالفون ويتدابرون ويتباغضون.

يقول يوسف القرضاوي: "تسامح كبير من الإسلام، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين"[47].

هكذا يتمدد في شرعنا مبدأ الاندماج الاجتماعي مع المخالف الديني إلى أخص الخصائص، وهي الحياة الزوجية، واللبنة الأساس للمجتمع، وهو ما يجعل المخالف في المجتمع الإسلامي يعيش كامل مواطنته بإيجابية عالية، كما كان الأمر على الأقل زمن النبوة والخلافة الراشدة.

3) مكافلة المخالف الديني:

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته مع المخالفين أن مقتضى البرور والإقساط للمخالف في قول الله تعالى: ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ (الممتحنة الآية 8) هو حسن المعاشرة ولطف المعاملة في السراء والضراء، لذلك كان المخالف في المجتمع النبوي مشمولا بالتكافل الاجتماعي، خصوصا في حالات العجز والحاجة، لأن أقوى موجب التكافل هو إنسانية الإنسان وآدميته المكرمة قبل الاختلاف، فقد أثنى الله الثناء الحسن على من يطعم المخالف عند الحاجة في قوله تعالى: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا** ﴾ (الإنسان الآية8)، فما الأسير زمن التنزيل سوى مخالف ديني.

فحين اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة في منع التصدق على فقراء أهل الذمة لكثرة الفقراء المسلمين جاء الرد القرآني حاسما في قوله تعالى: ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير**

فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ (البقرة الآية 272) فنادى النبي عليه الصلاة والسلام فورا على فقراء أهل الذمة ومكنهم من حقهم في الصدقة[48].

4) **عيادة مرضى المخالفين الدينيين:**

من صور الرحمة النبوية الجميلة بالمخالف ومقتضيات البرور به تفقده وزيارته عند مرضه، كما فعل صلى الله عليه وسلم مع غلام من اليهود كان مريضا "فَأَتَاهُ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ « أَسْلِمْ » فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ فَأَسْلَمَ فَقَامَ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقُولُ « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْقَذَهُ بِى مِنَ النَّارِ "[49]، فهذا الفعل النبوي إنما هو التفاتة إنسانية لطيفة وخدمة اجتماعية راقية في مثل هذه اللحظة من لحظات الإنسان الدقيقة، ومن جهة أخرى فهو فعل يشكل إسهاما فعليا في دعم الترابط الاجتماعي للمجتمع التعددي.

5) **حسن مجاورة المخالف الديني:**

إن مما يحقق الاندماج الاجتماعي مع المخالف في المجتمع التعددي حسن الجوار، وقد كان الإحسان إلى الجار فضيلة أخلاقية بين العرب قبل الإسلام، فصارت في الإسلام في أعلى الدرجات، فقد رتب الله سبحانه درجة الإحسان إلى الجار المخالف بعد الوالدين والأقربين في قوله تعالى: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتمى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب"** (النساء من الآية 36)، وقد حمل القرطبي الجار الجنب على المخالف اليهودي أو النصراني[50].

وقد تأكدت القيمة الشرعية العالية لحسن المجاورة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[51]، وبالغ عليه السلام في النهي عن خوارم الإحسان إلى الجار حين قال: " والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل ومن يا رسول الله قال الذي لا يأمن جاره بوائقه"[52].

وبيانا لمراتب الجوار الناظمة للمخالف الواجب الإحسان إليه، يقول عليه الصلاة والسلام: " الجيران ثلاثة جار له حق وهو المشرك، له حق الجوار، وجار

له حقان وهو المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار له ثلاثة حقوق مسلم له رحم، له حق الجوار والإسلام والرحم"[53].

6) صلة رحم المخالف الديني:

لما قرر الحق سبحانه أن يكون التواصل العائلي والترابط الأسري واجبا مقدسا لا ينقض بالخلاف أمر بالإحسان إلى الوالدين حتى في حالة اشتداد الخلاف الديني، فقال: ﴿ **وصاحبهما في الدنيا معروفا** ﴾ (لقمان من الآية 15)، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أن تصل أمها وتستقبلها في بيتها وهي مشركة لما قدمت عندها ترغب في رؤيتها وزيارتها[54]، ويأبى الله إلا أن تكون هذه القصة سببا[55] في نزول آية تقرر صلة رحم المخالف أصلا ثابتا تقرأ إلى يوم القيامة، وهي قوله تعالى: ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم..الآية** ﴾ (الممتحنة الآية 8).

ج- معلم التواصل الثقافي مع المخالف الديني :

لقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته نموذجا عمليا رائعا من التواصل الحضاري والتبادل الثقافي مع المخالف، وذلك من خلال إشراك المخالفين في بعض القيم الثقافية المشتركة، التي تبرز قدرة القيم الحضارية الإسلامية في استيعاب المخالف، نذكر من ذلك على سبيل المثال:

1) موافقة المخالف الديني:

كان من هديه صلى الله عليه وسلم السعي لموافقة المخالف الديني من أهل الكتاب، ولا يخالفهم إلا فيما لا يسعه إلا أن يخالفهم فيه، فقد روى ابن عباس " أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء"[56]، لذلك يمكن تلمس أوجه الموافقة النبوية للمخالف من خلال الأمثلة التالية:

في التعبديات:

فقد سعى النبي عليه الصلاة والسلام لموافقة اليهود في صيام عاشوراء ومشاركتهم في فرحهم الديني، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم "لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيما له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أولى بموسى منكم ثم أمر بصومه"[57].

في الهندام:

فقد حرص النبي عليه الصلاة والسلام على إبداء الموافقة للمخالف الديني حتى في دقائق الأمور كهيئة الشعر، فقد كان المشركون يفرقون الشعر، وأهل الكتاب يسدلون، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم الإسدال موافقة لهم ثم فرق بعد ذلك موافقة للآخرين[58].

ولعل النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الموافقة يسعى لوحدة المظهر الثقافي والحضاري لأبناء المجتمع ما وسعه ذلك، خصوصا وأن أهل الكتاب يصدرون في بعض أحوالهم عن دين وكتاب.

2) حسن المعاملة اليومية للمخالف الديني:

كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة والمثل الأعلى في حسن معاملة المخالفين والتلطف بهم حتى في التعامل اليومي بما لا يكاد يشعر معه المخالف بالتميز عن المسلمين، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

أ- حسن الاستقبال:

فقد كان صلى الله عليه وسلم يحسن استقبال المخالفين ويكرمهم وينزل أكابرهم منزلتهم، وكان من تمام لطفه وكرمه بالمخالف الديني أن استقبل وفدا من النصارى بمسجده صلى الله عليه وسلم حتى إذا حانت صلاتهم أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة في مسجده[59]، وزار اليهود في بيت المدارس، حيث يتدارسون كتابهم الديني وحاورهم فيها، إلى غيرها من صور المخالطة وتبادل الزيارات في الأماكن المقدسة لدى الطرفين.

ب- رد التحية :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقابل التحية بمثلها للمخالف الديني، وحتى في حالة الخداع في التحية وتحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل اليهود، لا ينكر عليهم ولا يعنف وإنما يتأدب معهم في الرد، فعن "عائشة رضي الله عنها قالت ثم دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليكم ففهمتها فقلت عليكم السام واللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قلت وعليكم"[60].

فهذا عنف وسوء أدب من المخالف قابله صلى الله عليه وسلم بمنتهى الرفق والفطنة، ونهى عن الرد عليهم بالعنف، فقال: " إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم"[61].

ج- التشميت:

كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يشمت العاطس المسلم إذا حمد الله، ويشمت المخالف إذا عطس بما يناسبه رفقا به وتكريما ، فقد " كان اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم يرحمكم الله فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم"[62]، فوسعهم صلى الله عليه وسلم بدعائه الكريم، يرجو لهم أعظم الأمور وهي الهداية والصلاح، ولم يحرمهم من هذا الأدب الرفيع.

تلك هي بعض معالم الرحمة في منهاج معاملة المصطفى صلى الله عليه وسلم للمخالفين الدينيين، تبرز كمال خلقه صلى الله عليه وسلم، ذكرتها بعد بيان معالم المنهج القرآني في تدبير العلاقة مع المخالف الديني، أرجو أن أكون قد وفقت في حسن عرضها وبيانها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

خاتمة:

في خاتمة هذا البحث، أوكد أن معالم تدبير العلاقة مع المخالف الديني التي كانت مدار هذا البحث، مؤسسة على أصولها النظرية الكبرى في القرآن الكريم، ومفصلة عمليا في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنته، نسعى من خلال مقاربتها إلى تقديم المنهج الإسلامي في معاملة المخالف الديني في تمام لطفه وسمو أدبه هدية للإنسانية المعاصرة التي مزقتها فتنة الاختلاف لما اختارت - جهلا أو حقدا - الصراع منهجا لإدارة العلاقة مع المخالف، وإرشادا لمن أساء الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدمه - جهلا أو اعتداء - لمن لا يعلم من الناس بما لا يليق به مما هو منزه عنه صلى الله عليه وسلم.

غير أن الإيعاب الجيد لقضية العلاقة مع المخالف الديني في المنهاج الإسلامي، والقدرة على حسن تمثلها وتدبيرها في الواقع المعاصر، يتوقفان على فهم القضية في بعديها التكويني والتشريعي، وذلك بالنظر إلى الاختلاف من حيث هو مقتضى الإرادة الإلهية الكونية من جهة، ومن حيث كونه موضوعا للتكليف الشرعي بحسن التدبير والإدارة، بمقتضى الإرادة الإلهية التشريعية من جهة أخرى.

فالخلط بين البعدين أو تغليب الجانب التشريعي على الجانب التكويني خروج عن المنهاج الإسلامي في الموضوع، ويفضي حتما إلى سوء تدبير العلاقة مع المخالف بإنكار الآخر وحمله على ما يكره، كما يحدث الآن بين الكثيرين.

وإجمالا فإني أستطيع من خلال هذه الدراسة أن أقرر ما يلي:

- قدم لنا القرآن الكريم منهجا متكاملا حيويا في تدبير العلاقة مع المخالف الديني، فأرسى القواعد والأسس، وقدم نماذج تطبيقية رائعة في إدارة الخلاف بين أنبياء الله ورسله وأقوامهم.

- قدمت لنا السيرة النبوية منهجا نبويا في تدبير الخلاف مع المخالف الديني، ظاهره اللطف وباطنه الرحمة، يستطيع المسلمون وغيرهم أن يتخذوه دليلا لهم في إدارة مختلف القضايا الخلافية.

- قدم المنهج النبوي في معاملة المخالف صورة حضارية راقية للإسلام في قدرته على التعايش مع مختلف الديانات والمذاهب والأفكار.

- المنهج النبوي في معاملة المخالف الديني شاهد عملي على أجواء الحرية الدينية في النظام الإسلامي، وانتفاء عوامل الإجبار والإكراه.

- بامتلاكنا وتشبعنا بالمنهج النبوي الأصيل في تدبير الاختلاف نتأهل بامتياز لمحاورة مختلف الثقافات والحضارات، وقيادة أهلها للتعاون في بناء المشترك الإنساني، وتمحيص المعرفة الإنسانية.

والحمد لله رب العالمين

لائحة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق.**
- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة تحقيق عبد الله دراز ، دار الكتب العلمية بيروت، 2003م.
- البخاري أبو عبد الله، الجامع الصحيح دار الكتب العلمية بيروت ط. جديدة بدون رقم ولا تاريخ.
- الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط.3، 1989م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية 1403هـ.
- ابن البناء المراكشي: رسالة في الجدل بمقتضى قواعد الأصول دراسة وتحقيق الباحث ط. 1 . 2002 مؤسسة الندوي وجدة المغرب.
- البغوي، معالم التنزيل ، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2002م، بيروت.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين:

- السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز بمكة المكرمة، 1994م بدون رقم.
- شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي حامد، الرياض: مكتبة الرشد، ط.1، 2003م
- الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، دار ابن حزم، 2002م، بيروت.
- ابن تيمية تقي الدين أحمد، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ، مطابع المجد التجارية.

- ابن حبان محمد التميمي الجامع الصحيح تحقيق شعيب الأرنؤوط الطبعة الثانية 1993م مؤسسة الرسالة بيروت لبنان.
- الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.1، 1990م.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة بيروت، 1379هـ.

ابن حزم:

- الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.
- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان بدون تاريخ ولا رقم الطبعة .
- ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب أرناؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط.2، 1999م.
- أبو داود، سليمان بن أشعث، سنن أبي داود، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.1، 1407هـ.
- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، بيروت: دار المعرفة، ط.1، 1408هـ.
- الربيع، مسند الربيع، تحقيق محمد إدريس عاشور، دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، بيروت، سلطنة عمان، 1415هـ، طبعة 1.
- رفيع، بن محمد ضوابط تدبير الاختلاف مع الآخر في أصول التراث الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 52، السنة 2008م.
- أبو زهرة محمد، تاريخ الجدل ط. دار الفكر 1980م.

- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- الطبري تاريخ الأمم والملوك، ط3 / 1991م دار الكتب العلمية بيروت..
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت لبنان: طبعة دار الفكر 1401هـ.
- مالك بن أنس، موطأ مالك تخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث ط2 ، 1930م.
- المتقي الهندي، علاء الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط.5، 1981م.
- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.1/ 1994م.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج، الجامع الصحيح ، منشورات المكتب التجاري بيروت بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.1، 1991م.
- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز ، تحقيق المجلس العلمي بتار ودانت، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، 1991م.
- عمارة، محمد، فلسفة الإسلام، مجلة حراء السنة الثالثة العدد التاسع 2007م.
- القرافي الشهاب، أنوار البروق في أنواع الفروق، طبعة عالم الكتب بدون تاريخ.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني،ط 2، 1372هـ، دار الشعب، القاهرة، ودار إحياء التراث العربي بيروت ط 2 بدون تاريخ.
- القرضاوي، يوسف، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ، مكتبة وهبة، طبعة 3، 1992م، القاهرة.
- سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، طبعة 1970م، القاهرة.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كما يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط.1، 1409هـ.
- ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ط. 1981م بدون رقم، وتحقيق السقا والأبياري وشلبي، بيروت: دار المعرفة، ط.6، 2007م.
- أبو يعلى المسند تحقيق رشاد الحق الأثري، طبعة 1، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، 1407هـ.

الهوامش:

[1] - الحاكم النيسابوري في المستدرك، كتاب الإيمان رقم 100، والدارمي في السنن، باب كيف كان أول شأن النبي رقم 15، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله محمدا صلى الله عليه وسلم.

[2] - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 1/ 395، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

[3] - أحمد في مسنده، من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رقم 23536، والبيهقي في شعب الإيمان باب في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه.

[4] - مسند الربيع من حديث جابر بن زيد، وبلفظ آخر عند الترمذي في سننه في كتاب التفسير، وعند البيهقي في شعبه.

[5] – سنن أبي داود باب ما يقول الرجل إذا سلم، والسنن الكبرى للنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، ومسند أحمد من حديث زيد بن أرقم, ومسند أبي يعلى من حديث زيد بن أرقم.

[6] – الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، 1/ 399.

[7] – الطاهر بن عاشور، المصدر السابق.

[8] – الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، 20/ 90.

[9] – الطاهر بن عاشور، المصدر السابق.

[10] – مسلم في الجامع الصحيح باب في صفة يوم القيامة، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

[11] – البخاري في الجامع الصحيح باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، كتاب الجنائز .

[12] – ينظر البغوي، معالم التنزيل ص 749، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2002م، بيروت، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 15/ 164-165.

[13] – البخاري في الجامع الصحيح باب من قام لجنازة زفر، كتاب الجنائز، مسلم في الجامع الصحيح باب القيام للجنازة، كتاب الجنائز .

[14] – البخاري في الجامع الصحيح، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها، كتاب التفسير

[15] – البخاري في الجامع الصحيح كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها.

[16] – ابن تيمية تقي الدين أحمد، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 4/ 33، مطابع المجد التجارية، د. ت.

[17] ابن عطية الأندلسي المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق المجلس العلمي بمكناس المغرب طبعة وزارة الأوقاف المغربية 1988م.
9/ 137.

[18] – أبو محمد ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام 1/ 23. دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ ولا رقم الطبعة.

[19] – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 2/ 151. طبعة دار الفكر 1401هـ بيروت لبنان.

[20]- ينظر تفاصيل ما أجمل هنا في: محماد رفيع، ضوابط تدبير الاختلاف مع الآخر في أصول التراث الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 52، السنة 2008م.

[21]- ابن البناء المراكشي: رسالة في الجدل بمقتضى قواعد الأصول دراسة وتحقيق الباحث ط. 1 . 2002 مؤسسة الندوي وجدة المغرب ص 24

[22] الشاطبي، أبو إسحاق: الموافقات في أصول الشريعة تحقيق عبد الله دراز الطبعة الثالثة / 2003م دار الكتب العلمية بيروت لبنان. 4/ 247.

[23] - أبو زهرة محمد: تاريخ الجدل ط. دار الفكر 1980 ص 41 .

[24] - نفسه ص 7 .

[25] - تنظر تفاصيل تلك المناظرة في ا بن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط. 1981م بدون رقم دار الفكر بيروت 1/ 313 وما بعدها .

[26]- تنظر تفاصيل القصة في ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، بيروت: دار المعرفة، ط.6، 2007م، 1/ 486-487.

[27]- المصدر السابق 1/ 487.

[28]- ينظر المصدر السابق 1/ 510-511

[29]- ينظر المصدر السابق.

[30] - ينظر سبب نزولها في القرطبي: الجامع لأحكام القرآن دار إحياء التراث العربي بيروت ط 2 بدون تاريخ. 17/ 269 وما بعدها .

[31] - ينظر سيرة ابن هشام 3/ 365- 366 .

[32] - ينظر الطبري تاريخ الأمم والملوك 2/ 94، ط. 3 / 1991م دار الكتب العلمية بيروت. وسيرة ابن هشام 3/ 239- 240 .

[33]- مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، بَاب جِزْيَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ.

[34] - البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم.

[35] - ابن حبان في صحيحه، باب الجنايات، كتاب الرهن، والحديث حسنه الأرناؤط في تعليقه على صحيح ابن حبان، والبيهقي في السنن الكبرى، باب الأسير يؤمن فلا يكون له أن يغتالهم.

[36]- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي، باب في أحكام الجهاد، الفصل الأول في الأمان والمعاهدة والصلح والوفاء بالعهد.

[37] - ابن حزم، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، ص85، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان بدون تاريخ ولا رقم الطبعة .

[38] - القرافي الشهاب، أنوار البروق في أنواع الفروق، طبعة عالم الكتب بدون تاريخ، الفرق التاسع عشر والمائة، (بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم)، 3/ 15.

[39] - أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان 1/ 76 تحقيق رضوان محمد رضوان دار الكتب العلمية بيروت 1403هـ

[40] - محمد عمارة، فلسفة الإسلام، مجلة حراء، ص55.

[41] - أبو داود في السنن كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئا بغير أمرهم.

[42]- ينظر البغوي، أبو محمد الحسين، معالم التنزيل ص1194، ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم4/ 350، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م

[43]- البيهقي في السنن الكبرى، باب فتح مكة، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 8/ 18، دار المعرفة بيروت، 1379هـ

[44] - ينظر يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص20-21، مكتبة وهبة، طبعة 3، 1992م، القاهرة.

[45] - سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص730، طبعة 1970م، القاهرة.

[46]- ينظر المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.1/ 1994م، 3/ 21.

[47] - يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص6.

[48]- ينظر البغوي، معالم التنزيل ص173.

[49]- أبو داود في السنن، كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز، باب عيادة المسلم غير المسلم، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الجنائز، باب عيادة المشرك، وصححه الألباني تعليقا على سنن أبي داود.

[50]- ينظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، ط 2، 1372هـ، دار الشعب، القاهرة 5/ 184، وابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ط.1، 1408هـ، دار المعرفة، بيروت، 1/ 138.

[51]- البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار.

[52]- البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم في الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

[53]- ابن حجر، العسقلاني، فتح الباري 10/ 442، والبيهقي في شعب الإيمان، باب إكرام الجار.

[54]- البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك.

[55]- ينظر البغوي، معالم التنزيل ص1304.

[56]- البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه.

[57]- نفسه.

[58]- نفسه.

[59]- ينظر ابن هشام، السيرة النبوية 1/ 511.

[60]- البخاري في الجامع الصحيح، كتاب، الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام، ومسلم في الجامع الصحيح، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.

[61]- مسلم، المصدر السابق.

[62] أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في تشميت العاطس، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تشميت العاطس، فصل في تشميت الذمي.